﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٤ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ٣٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٣٦﴾ [الرحمن: 33 - 36]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد التَّهديدِ بالفراغِ لمحاسبة الثَّقلَين، جاءَ نفيُ إمكانِ الهروبِ

لمّا كانَ التَّهديدُ بالفراغِ ربَّما أوْهَمَ أنَّهم الآنَ مَعجوزٌ عنهُم أو عن بعضِ أمرِهم؛ بيَّنَ بخطابِ القَبضِ المُظهرِ لمحضِ الوحدانيَّةِ، أنَّهم في القَبضةِ، لا فعلَ لأحدٍ منهم، بدليلِ أنَّهم لا يصلونَ إلى جميعِ مرادِهم ممّا هو في مقدورِهم، ولكنَّه سترَ ذلك بالأسبابِ، فتحدّاهم بإمكانِ النَّفاذِ من أقطارِ السَّماواتِ والأرضِ، ولمّا كان نفوذهم في حَدِّ ذاتِه ممكنًا، ولكنَّه منعهم من ذلك بأنَّه لم يخلق في أحدٍ منهم قوَّتَه، فأشار إلى قهرِهم عن شيءٍ من ذلك إلّا بسلطانٍ عظيمٍ منه سبحانه، وبأمرٍ قاهرٍ وقدرةٍ بالغةٍ، وأنَّى لهم بالقُدرةِ على ذلك! فإنَّهم لا يقدرون على مخالفةِ مُرادِه، سواء كانوا جمعًا أو فُرادَى، ولمّا سلبَ عنهم القُدرةَ على النُّفوذِ المَذكورِ؛ تنبيهًا على سلبِ جميعِ القدرةِ عنهم، وعلى أنَّ ما يقدرونَ عليه إنَّما هو بتقديرِه لهم نعمةً منه عليهم، ولمّا كان منهم مَن بلغَ الغايةَ في قسوةِ القلبِ وجمودِ الفكرِ، فهو يُحيلُ العجزَ عن بعضِ الأمورِ إلى أنَّه لم يَجْرِ بذلك عادةٌ، لا إلى أنَّه سبحانه المانعُ من ذلكَ، فعمَّهم بشيءٍ من سطوتِه بإرسالِ الشّواظِ على المعاندين، ولما كان التَّهديدُ بهذا لطفًا بهم، فهو نعمةٌ عليهم، فكرَّرَ التَّقريرَ والتَّوبيخَ والتَّقريعَ على تكذيبِهم بهذه الآياتِ البيِّناتِ، التي شاهدوها في الدُّنيا، والتي هي من الدَّلائلِ التي توجِبُ الإيمانَ[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 170 - 174.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾: (عشر) أصلان صحيحان، أحدهما: في عدد معلوم، ثمَّ يُحمَل عليه غيره، والآخر: يدلُّ على مداخلة ومخالطة[1]، والمعنى المِحوريُّ: تجمُّعٌ أو كثرةٌ بتداخلِ أشياءَ أو اختلاطِها، مكوِّنةً كيانًا مترابطًا[2]، والمَعشرُ: على وزنِ (مَفْعَلُ): كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ، نحوُ مَعْشَرِ المسلمين، ومعشر المُشْركين، والإنسُ مَعشرٌ، والجِنُّ مَعشرٌ، والجمعُ: مَعاشرُ، والمَعْشَرُ: الجَماعَةُ مِن النّاسِ، والمعشرُ والنَّفرُ والقومُ والرَّهطُ معناهم: الجمعُ، لا واحد لهم من لفظهم[3]، والمرادُ بالمعشرِ في الآيةِ: الجماعةُ العظيمةُ[4].

2) ﴿تَنفُذُواْ﴾: (نفذ) أصل صحيح، يدلُّ على مضاءٍ في الأمر[5]، والمعنى المِحوريُّ: اختراقُ الشَّيءِ والجَوازُ خِلالَ جِرْمِه بقوَّة[6]، والمرادُ بالنَّفاذ في قولِه: ﴿تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ﴾، أي: تَجوّزوا، وتَخْرُجوا، فتَهْرُبوا مِن قَضائي، وتَخْرُجوا مِن مَلَكوتي ومِن أقْطارِ سَماواتي وأرْضي، وتُخَلِّصوا أنْفُسَكم مِن عِقابي[7].

3) ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط) أصلٌ واحدٌ، يشير إلى القوَّةِ والقهرِ، ومن ذلك السَّلاطةُ، من التَّسلُّطِ، وهو القهرُ، ولذلك سُمّي السُّلطانُ سلطانًا[8]، وسُمّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّها تهجم على القلوب، أو لأنَّها تقهرُ المنكِرَ، أو المعارِضَ على التَّسليم، وسلاطةُ اللِّسان هي: القوَّة على القول، وأكثر ما تُستعمَل في الذَّمِّ[9]، والمعنى المِحوريُّ: التَّمكُّنُ من القهر من بعيد[10]، وكلُّ سلطان في القُرآن فهوَ حُجَّة، وإنَّما سُمّي سُلْطانًا؛ لأنَّه حُجَّة لله جلَّ وعزَّ في أرضِه، وقَوْلُهُ جَلَّ وعَزَّ: ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، أي: حَيثُما كُنتم شاهَدتم حُجَّةً لله تعالى وسُلطانًا يدلُّ على أنَّه واحدٌ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عشر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عشر).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح، والفيوميّ، المصباح المنير: (عشر).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفذ).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نفذ).
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 181.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلط).
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سلط).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلط).

4) ﴿شُوَاظٌ﴾: الشّواظُ: اللهبُ من النّارِ لا دخانَ معه[1]، والمعنى المِحوريُّ: لهبُ نارٍ ممتدٌّ، مَعه أو ليس مَعه دخانٌ، وليس في الاستعمالات اللُّغويَّة أو القرآنيَّة من هذا الجذر سوى هذه اللفظة[2]، واختُلِف في المرادِ بالشّواظِ في قولِه تعالى: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ على أربعة أقوال، الأوَّلُ: لهبُ النّار. الثّاني: أنَّه قطعة من النّار فيها خُضْرَةٌ. الثّالث: أنَّه الدُّخان، والرّابع: أنَّها طائفة من العذاب[3].

5) ﴿وَنُحَاسٌ﴾: النِّحاسُ: ضَرْبٌ من الصُّفْرِ والآنيةِ شديدُ الحُمْرَةِ، والنُّحاسُ، بضَمِّ النّونِ: الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه، وفي التَّنزيل: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾، الدُّخانُ الذي يَعلو وتضعفُ حرارتُه، ويخلصُ من اللهب، وقيل: النُّحاسُ بالضَّمِّ: الصُّفرُ نفسُه، والنِّحاسُ، بالكسر: دُخانه[4]، والمعنى المحوريُّ حدَّةٌ ودِقَّة تنبثُّ مع فراغ أثناءٍ[5]، والنُّحاسُ في الآيةِ فيهِ أرْبَعَةُ أقوالٍ: أحَدُها: أنَّهُ الصُّفْرُ المُذابُ عَلى رُؤوسِهِمْ. والثّاني: أنَّهُ دُخانُ النّارِ. والثّالِثُ: أنَّهُ القَتْلُ. والرّابِعُ: أنَّهُ نَحْسٌ لِأعْمالِهِم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآياتِ يُنادي المولى ﷻ الجماعاتِ الكثيفةَ العظيمةَ التي لا انتهاءَ لعددها من الإنس والجِنِّ، في الحياة الدُّنيا أو يومَ القيامةِ، وفي القيامة أرجحُ: إن قَدَرتُم أن تخرجوا من جوانب السَّماوات والأرض ونواحيهما؛ هربًا من قضاء اللّه وقَدَره، وأمره وسلطانه، فاخرجوا منها، وخَلِّصوا أنفسَكم، فإنَّكم لا تَقدِرون على التَّخلُّص والنُّفوذ من حُكمه إلّا بقوَّةٍ وقهرٍ، ولا قوَّةَ لكم على ذلك ولا قُدْرةَ، فلا يمكنكم الهربُ، وأنَّى لكم ذلك، وأنتم لا تملكون لأنفسكم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؟ ففي موقف الحساب يومَ القيامةِ لا يتكلَّم أحدٌ إلّا بإذنه، ولا تسمع إلّا همسًا، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك، والرُّؤساءُ والمَرْؤوسون، والأغنياءُ والفقراءُ، وإذا كانَ هروبُكم من سلطانه في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (شوظ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شوظ).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نحس).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نحس).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.

الدُّنيا أو من أرض المَحشَر في الآخرة أمرًا مستحيلًا، فبأيِّ نِعَم الله تُكَذِّبان أيُّها الثَّقلان؟ فقدَّمَ التَّنبيهَ والتَّحذيرَ؛ ترغيبًا للمُحْسِن، وترهيبًا للمُسيء، وهو تعالى قادرٌ على عقاب الجميع، فلا يُفْلِت مِنْه أحدٌ، كما أنَّه تعالى يعفو مع كمال القُدرة، وتلك نعمة أخرى، ثمَّ بيَّن تعالى للعُتاة والمعاندين أنَّهم لو خرجوا - سواءٌ في الدُّنيا أو الآخرة، على سبيل الفرض والتَّقدير - فإنَّ مصيرَ الخارجينَ أنْ يُسَلَّط عليهم سيلٌ من النّار، أو لهبٌ خالصٌ لا دخانَ معه من النّار، أو يُصَبَّ على رؤوسهم نحاسٌ مُذابٌ، فلا يقدِرون على الامتناع من عذاب الله، ثمّ كرَّرَ التَّقرير والتَّقريع والتَّوبيخَ، فقال: فبأيِّ نِعَم الله تُكَذِّبان أيُّها الإنس والجِنُّ؟ لطفًا منه ورحمةً، فإنَّ التَّهديدَ لطفٌ، والتَّمييزَ بين المطيع والعاصي، بإثابة الأوَّل والانتقام من الثّاني، من نِعَم الله الجليلةِ، وآلائه الجزيلةِ، حتّى يكون الخَلْقُ على بصيرةٍ من أمرهم[1].

لا مـهـربَ ولا مـلـجـأ لأحـدٍ مـن قـهـرِ الـلـهِ وسلطانِهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الغرضُ من التَّعبيرِ بأسلوبِ النِّداءِ ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾:

جاءَ النِّداءُ في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؛ لتوبيخِ المُكَذِّبينَ العاصينَ المعاندينَ، الذينَ توَهَّموا أنَّ التَّفرُّغَ لهم بعد حينٍ، دليلٌ على أنَّهم معجوزٌ عنهم أو عن بعضِ شأنِهم الآنَ، فجاءَ النِّداءُ ردعًا لهم وتهديدًا، مبيِّنًا أنَّهم في رقابةِ اللهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، والظّاهرُ أنَّ قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾ من خطاب الله إيّاهم يومَ القيامة، وقيل: يقال لهم ذلك حينَ يَفِرّون في أقطار الأرض؛ لِما يَرون من الهَوْل، فيجدون الملائكةَ قد أحاطت بالأرضِ، فيرجعونَ من حيث جاؤوا، وقيل: هو خطابٌ في الدُّنيا، والمعنى: إنِ استطعتُم الفرارَ من الموتِ[2]، وفي

النِّـداءُ تقريعٌ لـلـعـاصـيـنَ، وإشـــــارةٌ لدخولهم تحت سلطان القهر

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 214 - 215، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 830.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 64.

الحالين فإنَّ في النِّداءِ دلالةً على أنَّهم في قبضةِ اللهِ تعالى، وأنَّ علمه وقدرته محيطان بهم، كما أنَّ هذا النِّداءَ ترويعٌ للضّالّين والمُضلّين من الجنِّ والإنس بما يترقبهم من الجزاء السَّيّئ؛ لأنَّ مثلَ هذا لا يقال لجمعٍ مختلطٍ إلّا والمقصودُ أهلُ الجناية منهم، فقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ عامٌّ مُرادٌ بهِ الخصوصُ، بقرينةِ قَولِهِ بَعْدَهُ: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ﴾[1]، فالنِّداءُ هاهنا كالتَّرجمة لقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، إنِ استَطَعْتُم أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضي، فافعلوا، وأنّى لكم ذلك؟ ونحوه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: 22][2].

الغرض من التَّعبيرِ بالمنادَى مُضافًا:

مهما بلغَ عددُ المجتمعينَ المتساندينَ فإنَّهم في قبضةِ اللهِ

عدَلَ النَّظمُ الحكيمُ عن النِّداء بـ(يا أيّها الإنسُ والجِنُّ)، إلى النِّداءِ بـ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، فأضافَ الجنَّ والإنسَ إلى لفظِ ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ التَّحدّيَ يشملُ الجنَّ والإنس فُرادَى ومجتمعينَ، فإضافةُ المعشرِ إلى الجنِّ والإنس إضافةٌ شائعة كثيرةٌ، بإضافتهما إلى اسم يُبيِّنُ الصِّفةَ الَّتي اجتمع مُسَمّاهُما فيها، وهي هُنا صفةُ كونهم جنًّا وإنسًا، فصفتُهم الجنّيَّة والإنسيَّةُ مُسوِّغةٌ للتَّعبير باسم الجَمع عَلى هذهِ الصّيغة؛ إذِ المعشرُ العددُ الكاملُ الكثيرُ الذي لا عددَ بعدَه[3].

دلالةُ المخاطَبةِ بالجِنِّ والإنس دونَ الثَّقلَين:

زيادةُ تقريرِ خصائصِ المخاطَبينَ في الآيةِ

جاءَ النَّظمُ في الآيةِ بلفظَي الجنِّ والإنس دونَ الثَّقلَين؛ لزيادة التَّقرير، ولأنَّ الجنَّ مشهورون بالقُدرة على الأفعال الشّاقَّة، فخوطِبوا بما يُنبئ عن ذلك؛ لبيان أنَّ قدرتَهم لا تَفي بما كُلِّفوه، وكأنَّه لمّا ذكر سبحانه أنَّه مُجازٍ للعباد لا محالةَ؛ عَقَّب ﷻ ذلك

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 448.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.

ببيان أنَّهم لا يَقدرون على الخلاصِ من جزائه وعقابِه؛ إذا أراده، فقال سبحانه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[1].

بلاغةُ الإيجاز بالحذفِ في قَولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه سياقُ الكلام السّابق واللّاحق، والتَّقدير: فنقولُ لكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأنعام: 128][2]، ففي الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ على تقدير محذوف من الكلام، وقد يكونُ الحذفُ في هذه الجملة على تقديرِ فِعلِ القَولِ مَبْنيًّا لِلمفعول: فيُقالُ لَهم؛ لاستبعادِ أن يُكَلِّمَهُمُ اللّهُ شِفاهًا؛ تَحقيرًا لَهُم وتَصغيرًا لشأنِهم، وآيةُ ذلكَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: 174]، وحَذْفُ الفعل (نَقولُ)، والقائلُ هوَ اللّهُ تعالى في ذلك اليوم بعد الحشر، غرضُهُ التَّبكيتُ والتَّوبيخ[3]، فإنَّهُم مَهما بلغوا من القوَّةِ والبأس لن يخرجوا عن سلطانِ اللّهِ تعالى.

في الحذفِ توبيخٌ وتحقيرٌ للواهمينَ المعاندينَ

دلالةُ تقديمِ ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ على (الإنْسِ):

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الجنَّ على الإنس في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾، وقدَّم الإنسَ على الجنِّ في قولِه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ [الإسراء: 88]؛ وذلك لأنَّ النُّفوذ من أقطار السَّماوات والأرض بالجنِّ أليقُ؛ إن أمكن، والإتيانَ بمثل القرآن بالإنس أليقُ إن أمكن، على فرْضِ التَّقدير، فقدَّم في كلِّ موضع من يُظَنُّ به القدرةُ على ذلك[4]، وقدَّمهم كذلك لمزيد قوَّتِهم وقُدرتهم على الخفاء والتَّشكُّل في الصّور بما ظُنَّ أنَّهم لا يعجزهم شيء[5].

قدرةُ الجنِّ على النَّفاذ والخفاءِ أعظمُ من قدرةِ الإنسِ على ذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 182.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 13/ 147.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 361.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ في ﴿ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾:

إبرازُ قدرة اللهِ وشمولِها للمتضادّات على اختلافها

جاءَ الطِّباقُ بين الجنِّ والإنس في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾، مُبرزًا لشمولِ قدرته تعالى للجِنِّ والإنسِ، على اختلافِ ما بينهما من الطَّبائع والخصائصِ والقُدُراتِ، فليس أحدٌ من القَبيلَين بمُعجزٍ لله، بل هو تعالى محيطٌ بهم؛ فيحصل للمُتَلقّي من اليقين ما يَحثُّه على الإيمان الحقِّ والعمل الصّالحِ.

الغَرضُ من التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾:

الشَّرطُ لإلزامهم وتعجيزهم وبيانِ مدى ضعفهم أمامَ سلطان اللهِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بأسلوب الشَّرطِ؛ لإفادةِ الإلزام والتَّعجيزِ لمن لم يَرْضَ بقضاء اللهِ وقَدَرِه، وظَنَّ أنَّ بمقدوره الخروجَ من سلطان اللهِ، وهو إشارةٌ لمعنى حديثٍ قدسيٍّ عن أبي هِنْدٍ الدّاريِّ قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: قالَ اللهُ ﷻ: «مَنْ لَمْ يَرْضَ بقَضائي، ويَصْبِرْ على بَلائي؛ فليَلتَمِسْ رَبًّا سِوايَ»[1].

سرُّ التَّعبير بـ﴿إِنِ﴾ الشَّرطيَّةِ، ودلالةُ التَّعبير بالاستطاعةِ:

نفاذُ الجنِّ والإنسِ مستبعَدٌ عقلًا؛ لأنَّهم لا يستقِلّونَ بقدرةٍ ذاتيَّةٍ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بـ﴿إِنِ﴾ الشَّرطيَّةَ دونَ (إذا)؛ وذلك لأنَّ استعمالَ (إن) الشَّرطيَّة عادةً ما يكونُ للمعاني المحتملة الوقوع والمشكوكِ في حصولها، والموهومةِ والنّادرةِ والمستحيلةِ وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليقِ أمرٍ بغيره عمومًا، ولا تستلزم تحقُّقَ وقوعِه ولا إمكانَه، بل قد يكون ذلك من المستحيل عقلًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١﴾ [الزّخرف: 81]، أو المُستحيلِ عادةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 35][2]، ولمّا كانَ نفاذُ

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 505، والحديث رواه الطّبرانيّ في المعجم الكبير: 22/ 320، بسند فيه ضعف.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 9/ 4، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 407، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

الجنِّ والإنسِ مُستَبعدًا عقلًا وعادةً؛ لأنَّهم لا يستقلّونَ بقدرةٍ ذاتيَّةٍ تُمَكِّنُهم من ذلك، بل وجودُهم ذاتُه بيدِ اللهِ ﷻ؛ عبَّرَ النَّظمُ بـ(إن) الشَّرطيَّة لإفادةِ استبعاد استطاعتِهم، والاستطاعةُ: القدرةُ، والسّين والتّاء فيها للمبالغة، وأصلُ الاستطاعةِ طلبُ طواعيَةِ الفعل وتأتّيه، ثمَّ جعلَ نفيَه بمعنى نفيِ الإرادة والقدرةِ؛ لبيان أنَّهم لا يقدرون على الخلاص من جزائِه وعقابِه؛ إذا أراده[1].

سرُّ العدولِ عن التَّعبيرِ بضمير المثنى إلى ضمير الجمع:

مهما بلغتْ جموعُ الجنِّ والإنسِ، فلا سبيلَ لهم إلى النُّفوذِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن التَّعبيرِ بضمير المثنى (استطعْتُما) إلى ضمير الجمع ﴿ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ زيادةً في التَّحدّي والتَّعجيزِ، ففي التَّعبيرِ بالجمعِ إرادةُ التَّكثير، والإشارةُ إلى الاجتماعِ الكثيفِ والشُّغلِ العامِّ لكثيرٍ من أفرادِ الثَّقلين، ومع ذلك فلا سبيلَ لهم إلى النُّفوذِ مهما تكاثروا، وتعاضدوا، واجتمعوا، وتشاركوا في التَّخطيط والتَّنفيذ، كما أنَّ فيه حملًا على المعنى، فاللَّفظ مفردٌ لكنَّه اسمُ جنسٍ أفرادُه كُثُر.

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَن﴾ والفعلِ، وبلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

مهما تجدَّدتْ محاولاتُ النُّفوذِ؛ فإنَّها لا تُغني عنهم شيئًا

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باستعمالِ المصدرِ المُؤَوَّلِ ﴿أَن تَنفُذُواْ﴾ دونَ المصدرِ الصَّريح؛ وذلكَ لما في التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ مِنَ الدَّلالَةِ على الاستقبالِ والزَّمَنِ، وعدلَ عَن المَصدرِ الصَّريحِ، فلم يَقلْ: (إن استطعتم النُّفوذَ)؛ لدلالته على الحَدَثِ فحَسْبُ، دونَ الزَّمَنِ[2]، فالمصدر المُؤَوَّل أفادَ المبالغةَ في التَّحدّي، بأنَّه مهما تكرَّرت محاولاتُ نفاذِهم من أقطار السَّماوات والأرضِ، فإنَّ كلَّ

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 134.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 147.

محاولاتهم ستَبوءُ بالفشلِ، ولنْ تغنيَ عنهم من اللهِ شيئًا؛ وذلك لأنَّ قُدرتَه تباركت آلاؤه محيطةٌ بهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادَّةِ النَّفاذِ دونَ الخروجِ:

في النَّفاذ معنى الخروجِ وزيادَةٌ، بالقوَّةِ والاختراقِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ النَّفاذِ دونَ الخروجِ في قولِه: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾، وذلك لأنَّ في النَّفاذِ معنى الخروجِ وزيادَةً؛ إذ يدلُّ على الجَوازِ والخُلوصِ من الشَّيءِ واختراقِ جِرمِه بقوَّة[1]، والمرادُ: لن تستطيعوا أن تَجوزوا، وتَخْرُجوا، فتَهْرُبوا مِن قَضائي، وتَخْرُجوا مِن مَلَكوتي ومِن أقْطارِ سَماواتي وأرْضي، وتُخَلِّصوا أنْفُسَكم مِن عِقابي[2].

مَعنى ﴿مِنْ﴾ ودلالتُها:

(من) ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّ السَّماواتِ أرحبُ وأوسعُ وأعظمُ وأسبقُ في الخلقِ

جاءتْ ﴿مِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ابتدائيَّةً؛ للدَّلالةِ على أنَّ ابتداءَ النَّفاذ - على سبيل الافتراض والتَّقدير - يكون من السَّماوات؛ لأنَّها أرحبُ وأوسعُ، ولأنَّ من عادَةِ النَّظمِ الجليل أن يبتدئ بذِكرها لعِظَمِها وسَبقِ خَلْقِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجمعِ، والغرضِ من الإضافةِ:

رغمَ رحابةِ آفاقِ السَّماواتِ والأرضِ، فإنَّ قدرتَه تعالى قاهرةٌ

أضافَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ ﴿أَقْطَارِ﴾ جمعًا إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لبيانِ رحابةِ السَّماواتِ والأرضِ، وشمولِ قدرته تعالى عليهما وعلى من فيهما؛ إذ المُرادُ بأقطارها جوانبُها ونواحيها الواسعةُ الأرجاء، وعبَّر بها جمعًا للتَّكثير والتَّرهيب، والمعنى: إنِ استطعتم أن تهربوا من الموت بأن تخرجوا من أقطار السَّماوات والأرض، فاهربوا، واخرجوا منها، والمعنى: أنَّكم حيثما كنتم أدرَكَكم الموت، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النّساء: 78]، ولن تستطيعوا أن تهربوا منه بالخروج من أقطار السَّماوات

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نفذ).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 181.

والأرض، وهذا إخبار عن عجزهم عن النُّفوذ من الأقطار، وأنَّهم في قبضة الجبّار الذي لا يفوته مطلوبٌ أينما كان[1].

دلالةُ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معًا:

تحقيقُ عجزِ الجِنِّ والإنسِ عن الفرارِ

ذكر النَّظمُ الحكيمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ معًا على عادةِ البيانِ القرآنيِّ الغالبةِ في مثل هذه المواضع، وقد أفاد الجمعُ بينهما كذلك تحقيقَ إحاطةِ الجهاتِ كلِّها؛ تحقيقًا للتَّعجيز وتوكيدًا له، أي: فهذه السَّماوات والأرض أمامَكم، فإن استطعتم؛ فاخرُجوا من جهة منها فرارًا من موقفكم هذا، وذلك أنَّ تعدُّد الأمكنة يُسَهِّل الهروبَ من إحدى جهاتها[2].

بيانُ المرادِ بالأرضِ في ﴿أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الأرضُ إمّا الأرضُ المذكورةُ في الدُّنيا، وإمّا أرضُ المحشرِ

الأرض المذكورة هنا إما أن تكون الأرضَ المذكورة في الدُّنيا، وذلك حين البعث، وإمّا أن تكون أرضَ الحشر، وهي التي سمّاها القرآن السّاهرةَ في سورة النّازعات، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]، وإمّا أن يكون ذلك جاريًا مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات، كقول أبي بكر الصِّديق: "أيُّ أرضٍ تُقِلّني، وأيُّ سماءٍ تُظِلّني"، وهذه المعاني لا تتنافى، وهي مِن حَدِّ إعجاز القرآن[3].

الغرضُ من التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿فَٱنفُذُواْۚ﴾:

الأمرُ للتَّعجيزِ، وفيه إشارةٌ خفيَّةٌ للتَّوبيخِ والتَّهكُّمِ والاستهانةِ

خرجَ الأمرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، بدلالةِ السّياقِ عن الطَّلبِ إلى التَّعجيز[4]، فالمرادُ: إظهارُ عجزِهم عن النَّفاذ، وليس للأمرِ بهِ، وفيه إشارةٌ خفيَّةٌ للتَّوبيخِ والتَّهكُّم والاستهانةِ، فليس في مقدورهم مهما بلغوا من القوَّة والسُّلطانِ أن يَنفُذوا من أقطار السَّماوات والأرض.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 169.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 111.

موقعُ جملةِ ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ممّا قبلَها ودلالتُهُ:

بيانُ التَّعجيزِ دالٌّ على المبالغةِ في التَّحدّي

جاءتْ جملةُ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بيانًا للتَّعجيزِ الذي في الجملةِ قبلها؛ فإنَّ السُّلطانَ: القدرةُ، أي: لا تَنفُذون من هذا المأزق إلّا بقدرةٍ عظيمةٍ تفوقُ قدرةَ اللّهِ الذي حشركم لهذا الموقف، وأنّى لكم هاتِه القوَّةُ! وهذا على طريق قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾ [الشّعراء: 210 - 211]، أي: ما صعدوا إلى السَّماء، فيتنزَّلوا به[1]، وفي هذا ما فيه من المبالغة في التَّحدّي؛ ليتنبَّه الثَّقلانِ إلى أنَّهم ليس في مقدورهم البتَّةَ أن يفعلوا إلّا ما أقدرَهم عليه بمَددٍ منه، فضلًا ورحمةً بهم.

دلالة ﴿لَا﴾ النّافية على الحال والاستقبال:

لا قدرةَ للثَّقلَين على النُّفوذ أبدًا، لا في الحال ولا في الاستقبالِ

دلَّ نفيُ الفعلِ ﴿تَنفُذُونَ﴾ بـ ﴿لَا﴾ النّافية، في قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، على صلاحيَّة هذا النَّفي للحال والاستقبال، أي: لا تَنفُذونَ في حالكم، ولا تنفذون في غَدِكم؛ لكونِكم لستُم أهلًا للنُّفوذ أصلًا، فلا قدرةَ لكم على ذلك؛ لأنَّ قدرتَكم إنَّما هي مستمَدَّةٌ من قدرةِ اللّهِ الذي لا يقعُ في مُلكِه إلّا ما أرادَ.

الغرض من التَّعبير بالمضارع المنفيِّ ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾:

مهما حاولَ المكابِرونَ المعانِدونَ فإنَّهم عاجزون لا محالةَ

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارع المنفيِّ، في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾، على استمرار عدم النَّفاذ من أقطار السَّماوات والأرضِ، مهما حاولَ المكابِرونَ الواهِمون من الثَّقَلَين في الحياة الدُّنيا ويومِ القيامة، وفي إثبات ديمومة عدم النَّفاذ تعريضٌ بضعفهم وتهافتِ قواهم؛ لأنَّ دوام العَجزِ دليلُ النَّقصِ، والعاقلُ يَعْتَبِرُ.

بلاغةُ التَّعبير بالاستِثناءِ المُفَرَّغ:

تأكيدُ استحالةِ النَّفاذِ، فإنَّهم لن يَفرّوا من مُلك اللهِ إلّا إلى مُلكه

الاستثناء المُفَرَّغُ في قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، هو مِنْ عُموم الأحوال والعِلَلِ، على معنى: أنَّهُم لا يَنفُذونَ في حالٍ من

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 259.

الأحوال، ولا لعِلَّةٍ مِنَ العِلل، إلَّا بمُلك اللهِ وقُدرته وجَبَروته، فحيثُ توجَّهتُم فثَمَّ مُلكُ اللهِ الواحدِ القهّار[1].

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾:

جاءتِ الباءُ في قولِه: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ للإلصاقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ النَّفاذ من أقطارِ السَّماواتِ والأرضِ لا يتأتَّى إلّا بالالتصاقِ بقوَّة عظيمةٍ وجَنابٍ شامخٍ، ولا سبيلَ إلى ذلك إلّا بمعونةِ اللهِ وتوفيقِه، فلا تتخلَّصون من عذاب الله إلّا بسلطانٍ يُجيركم، وإلّا فلا مُجيرَ لكم، وقيل: الباء بمعنى (إلى)، أي: إلّا إلى سلطانٍ، كقوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: 100]، أي: (إليّ)، وقيل معناه: لا تنفذون إلّا ومعكم سلطانٌ من الله[2].

الـبـاءُ إمّـا لـلإلـصـاقِ، أو بمعنى (إلى) أو بمعنى (مع)

سرُّ إيثارِ لفظِ (سلطان)، والغرضُ من تنكيره:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (سلطانٍ)، في قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾؛ لما فيه من الدَّلالةِ على القوَّةِ والقَهْرِ؛ ولذلك سُمّي السُّلطانُ سلطانًا، وسُمّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّها تَهْجُمُ على القلوب، أو لأنَّها تقهرُ المُنكِرَ أو المعارضَ على التَّسليم[3]، كما أنَّ صيغةَ (فُعْلان) صيغةٌ فيها معنى المصدريَّة، تدلُّ على المبالغةِ، ففيها إشارةٌ إلى عِظَم القُدرةِ المطلوبة للنُّفوذ، ولا يتأتَّى ذلك إلّا لله تعالى؛ إذِ المُرادُ بالسُّلطان هاهُنا: القوَّة التي يتسلَّط بها على الأمر والمُلك والقدرة والحُجَّة[4]، وجاءتْ كلمةُ (سُلْطانٍ) نكِرةً للتَّهويل والتَّعظيم؛ إذْ إنَّ الخروجَ من أقطار السَّماواتِ والأرضِ ليس في

فـي السُّلطان قوَّةٌ وقَـهْـرٌ، وحُـجَّـةٌ على المنكرِ المُعاندِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 169.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 25/ 337، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 170، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 331.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلط).

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 331.

مقدور أحدٍ من الجِنِّ والإنسِ، بل لا بدَّ له من قدرةٍ عظيمةٍ جسيمةٍ لا قِبلَ لأحدٍ بها سوى اللّهِ تعالى.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد ذِكر التَّحدّي بالقهر والسُّلطان، ثمَّ يأتي التَّقرير

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعام، بكونِهِ تعالى يُرسل الآياتِ تِلو الآياتِ؛ لتَحَدّي المُنكرين المُعاندين من الثَّقلَين، ففي التَّحدّي بالعَجز عن الهرب من قضاء اللّهِ وسطانِه نعمةٌ للمؤمنين وطمأنينةٌ للموحِّدينَ، ونِقمةٌ على العاصين المعاندين، فجاءَتِ الفاءُ لتقرير هذا الأصل الجليل في أذهان المؤمنين، ولتوبيخِ الكفّار المُنكرين، فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتم هذه النِّعمَة العظيمةَ الجسيمةَ، التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مِرْيَة فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بدَّ من الإقرارِ التّامِّ والتَّصديق الكاملِ، والإيمان الحقِّ بعد الامتنان بهذه النِّعمة، التي هي دليلُ قدرتِه وإحاطَتِه[1].

بيانُ المُرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

إظهارُ التَّحدّي للمُعاندينَ، وقصمُ ظهورِ المكابرينَ

امتنَّ اللّهُ تعالى في هذه الآية الجليلة بنعمة عظيمةٍ، رغمَ كونِها وعيدًا وتهديدًا، وهي النِّعمة الحاصلة بالتَّحذير والوعيد والتَّحدّي، فإنَّها تزيد المُحْسِنَ إحسانًا، وتَكُفُّ المُسيءَ عن إساءتِه، مع أنَّ من حَذَّركم، وأنذرَكم، قادرٌ على الإيقاع بكم من دون مهلة[2].

دلالةُ الاستئنافِ في جملةِ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾:

إثارةٌ للتَّساؤل عمّا وراءَ محاولةِ النُّفوذِ

فصل النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾، ولم يَعْطِفْهُ على الآيةِ السّابقةِ عليه، وهي قولُه: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 214.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 165، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 119.

تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾؛ وذلك لأنَّها وقعتْ جملةً مستأنَفَةً، قُصِدَ بها بيانُ أحوالِ الآخرة، فهي استئنافٌ في جواب سؤال مُقَدَّر[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ المَبْنيِّ للمفعولِ ﴿يُرۡسَلُ﴾:

تَجدُّدُ إرسالِ الشّواظِ على الكافرين المعانِدينَ

في قولِه تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ﴾ عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ باستعمالِ الفعلِ المضارعِ؛ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الإرسالِ، فكلَّما حاولَ الواهمون والمكابِرون النُّفوذَ من أقطارِ السَّماوات والأرضِ؛ تَجدَّدَ إرسالُ الشّواظِ عليهم، وكذلك فإنَّ في التَّعبيرِ بصيغة المضارعةِ استحضارًا للمشهدِ، كأنَّ المُتلقّي يُشاهدُه بأُمِّ عينِه، فيحصل له من الرَّهبةِ والتَّخويفِ ما يَحجُزه عن كُفران نِعَم اللهِ وآلائه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المَبْنيِّ للمفعولِ ﴿يُرۡسَلُ﴾:

ترهيبُ الثَّقَلَينِ من أوهامِ الاقتدارِ على النَّفاذ من أقدار اللهِ

وكذلك فإنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ المبني للمفعولِ إثارةً للرَّهبَةِ والخوفِ في النُّفوسِ، وفيه أيضًا مبالغةٌ في الاهتمامِ بالفعلِ في ذاته، وهو إرسالُ الشّواظِ؛ لأنَّ المُرْسِلَ - وهو اللهُ تباركت آلاؤه - معروفٌ بالضَّرورةِ، إذ لا قدرةَ لأحدٍ سوى اللهِ على فعلِ ذلك.

معنَى (على) ودلالتُها، وبيانُ المُرادِ بالتَّثنيةِ:

ركوبُ العذابِ واستِعلاؤه على فريقٍ بعينِه من الثَّقَلَينِ، وهم المُكذِّبونَ دونَ غيرهم

جاءَ حرفُ (على) في قولِه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ على أصلِ معناه، وهو الاستعلاءُ، فأفادَ استعلاءَ الشّواظِ على الثَّقَلَينِ المُحاوِلَيْنِ للنَّفاذِ، وذلك على سبيل الفَرْض والتَّقدير، فكأنَّ الشّواظَ قد علتهما، وركبتهما، فلا مَفرَّ لهما منها، وضمير ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ راجعٌ إلى الجنِّ والإنس، فهو عامٌّ مرادٌ به الخصوصُ بالقرينة، وهي قولُه بعدَه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الآيات، وهذا تصريح بأنَّهم مُعاقَبون بعد أن عَرَّض لهم بذلك تعريضًا بقوله: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 505، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 111.

﴿تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾، فسَوْقُ الجِنِّ والإنس بالنّار إلى المحشر، وازدحامُهم حتّى يكون على القَدَم ألفُ قدمٍ، وإرسالُ الشّواظِ والنُّحاس عليهم، ليس لعموم الجِنِّ والإنس، بل وردَ في أناسٍ: أنَّهم يُخرَجون من قُبورهم لِقُصورهم، لا يَحْزُنهم الفَزَعُ الأكبرُ، وكلُّ واحدٍ ممَّن حضر الموقف على قَدْرِ عمله؛ فمنهم من يُظَلُّ في ظِلِّ العرشِ، ومنهم مَن يُلجِمُه العَرَقُ، ومنهم من يراه قصيرًا، ومنهم من يراه طويلًا[1].

الغرضُ مِن تَنكيرِ نائبِ الفاعلِ ﴿شُوَاظٌ﴾:

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ نائبَ الفاعلِ ﴿شُوَاظٌ﴾ للتَّرهيب والتَّخويف، ويُلحظُ فيه معنى التَّعظيم والتَّهويل، فالمُرادُ: أنَّها شواظٌ عظيمةُ الخطر، هائلةُ الأثرِ، ثبتُّ الرُّعبَ والخوفَ في قلوبِ الثَّقلَينِ ساعةَ الحشرِ؛ إذا خرجوا من قبورهم، وساقهم شواظٌ إلى المحشر[2]، أو في عَرَصاتِ القيامةِ، وفي ذلك تنبيهٌ للواهمينَ منهم في مبلغِ اقتدارهم في الحياةِ الدُّنيا؛ ليرجعوا إلى طريقِ الحقِّ والصَّوابِ.

في عظمة الشّواظ وشدَّةِ خطره تنبيهٌ إلى مبلغِ اقتدار اللهِ تعالى

دلالةُ إيثار مفردةِ ﴿شُوَاظٌ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عمّا يُرْسَلُ على المارقينَ الفارّينَ يومَ الحشرِ، أو في عَرَصاتِ القيامةِ بالشّواظِ، واختُلِفَ في المُرادِ بالشّواظِ في قولِه تعالى: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ على أربعة أقوال، **الأوَّلُ:** لهبُ النّار. **الثّاني:** أنَّه قطعة من النّار فيها خُضْرَةٌ. **الثّالث:** أنَّه الدُّخان، **والرّابع:** أنَّها طائفة من العذاب[3]، ورجَّحَ كثيرونَ أنَّ معنى الشّواظ هو اللهب الصّافي بلا دُخان[4]، والمعنى: يُرسَلُ عليكما يا معشر الجِنِّ والإنس - إن أرَدتُما الفرارَ من عدالتي، ولَجَجْتُما في عدم

العذابُ بالنّارِ الخالصةِ للمُكذِّبينَ المُعانِدينَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 260، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 6/ 506.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 64.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شوظ).

الإذعان لقضائي وحُكمي فيكما[1] - نارٌ صافيةٌ تُحرقُكم فلا تذرُ منكم متوهِّمًا إلّا أذهبَتْه.

معنَى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿مِّن نَّارٍ﴾:

جاءَ حرف ﴿مِّن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ للابتداءِ، أي: هذا الشّواظُ كائنٌ مبتَدأٌ من نارٍ صافيةٍ، جزاءَ جُرأتكم على اللّهِ، وتوهُّمِكم أنَّ في مقدورِكم النَّفاذَ عن أمره ومشيئته.

الغرض من تنكير ﴿نَّارٍ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿نَّارٍ﴾ في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ نكرةً، للتَّفخيم والتَّهويلِ[2]، حتَّى يتَّعظَ المُكذِّبونَ المعاندونَ عن تحدّي قدرتِه تعالى.

التَّفخيمُ والتَّهويلُ من شأنِ النّارِ مناسِبٌ للوعيدِ الشَّديدِ

دلالةُ العطفِ في ﴿وَنُحَاسٌ﴾، والغرضُ من تنكيرِه:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ على ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ إمعانًا في إرسالِ العذابِ على المُكذِّبينَ المعاندينَ؛ إذِ النُّحاسُ بضَمِّ النّونِ: الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه، وقيل هو الصُّفرُ نفسُه، والنِّحاسُ بالكسر: دُخانه، وقيل: إنَّه القَتْلُ، أو هو نَحْسٌ لأعْمالِهِمْ[3]، ثمَّ إنَّ ذِكْرَ الأمرَين، وهما إرسالُ الشّواظِ والنُّحاسِ، بعد خطاب النَّوعين، يحتمل أن يكون لاختصاصِ كلِّ واحدٍ بواحدٍ، وحينَئذٍ فالنّارُ الخفيفةُ للإنسِ؛ لأنَّها تُخالف جوهره، والنُّحاسُ الثَّقيلُ للجنِّ؛ لأنَّه يخالفُ جوهرَه أيضًا، فإنَّ الإنسَ ثقيلٌ، والنّارُ خفيفةٌ، والجنُّ خِفافٌ، والنُّحاسُ ثقيلٌ، وكذلك إن قلنا: المرادُ من النُّحاسِ الدُّخان، ويحتمل أن يكون ورودُهما على حدِّ واحدٍ منهما، وهو الظّاهر الأصحُّ[4]، وذهبَ بعضهمُ إلى أنَّ الدُّخانَ الذي لم تلحقهم مضَرَّتُه والاختناقُ

مضاعفةُ العذابِ للمتوهِّمينَ المعاندينَ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 831، وأبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 229.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 112.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 435.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 363.

به؛ بسبب شدَّة لَهَب الشّواظ، يُضاف إلى ذلك الشّواظ على حيالِه، فلا يُفلِتون من الأمرَين[1].

توجيهُ القراءات في ﴿شُوَاظٌ﴾ و﴿وَنُحَاسٌ﴾:

الشّواظُ والنُّحاس إمّا متعاقبانِ وإمّا متداخلانِ

وردَ في كلمةِ ﴿شُوَاظٌ﴾ قراءتانِ، فقرأ ابنُ كثيرٍ بكسرِ الشّينِ، وقَرَأ الباقونَ بضَمِّها، واختلفوا كذلك في ﴿وَنُحَاسٌ﴾، فقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورَوْحٌ بخَفْضِ السّينِ ﴿وَنُحَاسِ﴾، وقَرَأ الباقونَ برَفْعِها[2]، والمعنى على قراءة الرَّفع: يُرسَلُ عليكما شواظٌ، ويُرسَلُ نحاسٌ، أي: يُرسَلُ هذا مَرَّةً وهذا مَرَّةً، ويجوز أن يُرسَلا معًا من غير أن يمتزج أحدُهما بالآخر[3]، ووُجِّهت قراءةُ الجرِّ بأحد تقديرين، **الأوَّلُ:** تَقديرها: شيءٌ مِن نُحاسٍ كقوْلِهم: تَقَلَّدْتُ سيفًا ورمحًا. **وثانيهما** – وهو الأظْهَرُ –: أنْ يَقولَ: الشّواظُ لم يكنْ إلّا عندما يَكونُ في النّارِ أجزاءٌ هوائيَّةٌ وأرضيَّةٌ، وهو الدُّخانُ، فالشّواظُ مُرَكَّبٌ مِن نارٍ ومِن نُحاسٍ، وهو الدُّخانُ، وعلى هذا فالمُرسَلُ شَيْءٌ واحِدٌ لا شَيئانِ، غَيرَ أنَّهُ مُرَكَّبٌ، فإن قيلَ: على هذا لا فائِدَةَ لِتَخْصيصِ الشّواظِ بالإرسال إلّا بيانُ كونِ تلكَ النّارِ بعدُ غيرَ قويَّةٍ قوَّةً تُذْهِبُ عَنْهُ الدُّخانَ، نَقولُ: العَذابُ بالنّارِ الَّتي لا تُرى دونَ العذابِ بالنّارِ الَّتي تُرى؛ لِتَقَدُّمِ الخَوْفِ عَلى الوُقوعِ فيهِ، وامتِدادِ العَذابِ، والنّارُ الصِّرْفَةُ لا تُرى، أوْ تُرى كالنّورِ، فلا يَكونُ لَها لَهيبٌ وهَيْبَةٌ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بمعنى الدُّخانِ:

التَّرهيبُ والتَّخويفُ، بما يخفَى على الأعينِ وبما لا يخفى

في قوله: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ إذِ استعارَ النُّحاسَ للدُّخان، مع أنَّه حقيقةٌ في الصُّفر[5]، وفيها مزيدٌ من

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 260.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 381.
(3) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 391.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 363.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 311.

التَّرهيبِ والتَّخويفِ، بما لا يخفى على الأعينِ أحيانًا، وهو الشّواظُ، وبما يُرى بالعين، ويَخْنُقُ الصُّدورَ، وهو الدُّخانُ.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾:

فقدانُ الانتصارِ مُـتَرَتِّـبٌ على إرسالِ الشّواظِ والنُّحاسِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ إمّا عاطفةٌ أو سببيَّةٌ[1]، وفيها ترتيبٌ لعدم انتصارِهم وخسرانِهم على ما أرسلَه اللّهُ عليهم من الشّواظِ والنُّحاسِ، وهما من دلائلِ قدرتِه وإحاطةِ جبروته بالخَلقِ أجمعينَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾:

تجدُّدُ الخُسرانِ واستحضارُ مشهدِ الفرارِ تنبيهٌ للمعانِدين

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعةِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؛ ليُفيدَ تجدُّدَ الخُسرانِ وعدمَ الانتصارِ مهما تكرَّرتْ محاولةُ الفِرار من قَدَرِ اللّهِ، وفيه كذلك استحضارٌ لمشهدِ الفارّين، وهم يجتهدونَ في الفرارِ، فلا يبلغونَ سوى الخسارةِ الفادحةِ، بإصابة العذابِ لهم، وفي التَّعبير بـ(لا) النّافية نفيٌ لجميعِ أنواعِ الانتصارِ، فلا ينتصرُ أحدهما بالآخر، ولا هما بغيرهما، وإن كان الكفّار يقولون في الدُّنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر: 44]، والانتصار: التَّلبُّس بالنُّصرةِ، وأمّا إذا كان الانتصار في قوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ بمعنى الامتناع، فهو في الحقيقة راجع إلى هذا المعنى؛ لأنَّه يكون متلبِّسًا بالنُّصرة، فهو ممتنعٌ لذلك[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد ذكرِ إرسالِ الشّواظِ والنُّحاسِ يأتي التَّقرير والتَّوبيخُ

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعامِ بكونِه يرسل الشّواظَ والنُّحاسَ على المنكرين المعانِدين من الثَّقلَين، ففيه ترهيبٌ وتخويفٌ بسوءِ المصيرِ، فجاءَتِ الفاءُ تفريعيَّةً؛ لتقرير هذا الأصل الجليل في أذهان المؤمنين، ولتوبيخِ الكفّار المُنكرين.

(1) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 205، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 11/ 334.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 363.

بيانُ المرادِ بـ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضعِ:

التَّمييزُ بينَ المطيعِ والعاصي بالجزاءِ والانتقامِ، مِن أعظمِ الآلاءِ

اشتملت الآيةُ على تهديدٍ عنيفٍ ووعيدٍ شديدٍ للمُكذِّبينَ العاصينِ، ورغمَ ذلك فقد عقَّبَ النَّظمُ بالآية نفسِها؛ وذلك لتقرير المؤمنين ولتوبيخ الكافرين؛ لأنَّ التَّهْديدَ لُطْفٌ، والتَّمييزُ بَينَ المطيعِ والعاصي بالجَزاءِ والانتِقامِ مِنَ الكفّارِ، مِن عِدادِ الآلاءِ، ففي الإنذار والتَّخويف أعظمُ نعمة على العبدِ؛ لأنَّ إنذاره في دار الدُّنيا من أهوال يوم القيامة، من أعظم نِعم اللّه عليه[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 112، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ص: 303.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"